ISSN Online: (2682-4469) ISSN Print: (2090-0090)

بحوث الفعل في التربية
بين العدالة الاجتماعية والتشاركية

Action Research in education between Social Justice and Participatory

إعداد

الأستاذ الدكتور/ منصور أحمد عبد المنعم

أستاذ المناهج المتفرغ - كلية التربية جامعة الزقازيق

مقدمة:

يعيش العالم اليوم عصر المعرفة الذي يتميز بالتحديات الرقمية في عالم متغير يتسم بخصائص تكنولوجية وثورة معرفية وتغيرات في شتى نواحي الحياة.

وتعد ثقافة بحوث الفعل Action Research أحد أنماط البحث العلمي الذي يهتم بقضايا التعليم وأساليب التعليم والتعلم. ثقافة بحوث الفعل جديدة في البيئة التعليمية المصرية ولدى العاملين في التعليم العام وكذلك التعليم الجامعي. وعلى هذا بات من الأمور الملحة الاهتمام بموضوع بحوث الفعل لتحقيق التغير الاجتماعي وكذلك التنمية المهنية للمعلمين علاوة على ما يستفيده المتعلمين من التحسن في الآداء المدرس والتعليمي بصفة عامة نتيجة ثقافة بحوث الفعل وتطوير العمل التعليمي والتربوي.

لقد أصبحت بحوث الفعل بالمشاركة Participator action research ملمح يميز المجتمع الحديث بما تتيحه من فرص للطلاب وتزويدهم بإطار يقدموا من خلاله أفكارهم وتوصيل آرائهم المفيدة والإبداعية.

وتعتبر بحوث الفعل التشاركية بمثابة مدخل لتعزيز جودة التعليم في كل المستويات في التعليم العام والتعليم الجامعي وتطوير أداء المعلمين والطلاب وأصحاب المصلحة في المجتمع. ومن خلالها يكتسب الطلاب المعرفة ويحصلون على المهارات، ومن ثم يزيد لديهم الوعي الاجتماعي وبناء محتوى يقوم على التعاون المفيد لجميع المستفيدين.

إن إنتاج المعرفة Knowledge عملية تقوم على جهد مجتمعي يتكون عبر أجيال من خلال مدخل البنائية. هذه المعرفة تتعلق بالخبرة والحياة الواقعية للناس. وعلى الرغم أن المعرفة تؤثر في سلوك هؤلاء الناس، فإن بحوث الفعل التشاركية من جهة أخرى تؤثر من خلال نتائجها في تنفيذ وتطبيق هذه المعرفة، وكذلك تؤثر إجراءات بحوث الفعل التشاركية في تقديم وتحقيق الفهم التحليلي وكذلك التأمل في مشكلات المجتمع المحلي.

ويعتبر مدخل بحوث الفعل التشاركية مدخلاً يمكن تمييزه وإدراكه من خلال الأسباب التالية :

(1) أنه مدخل قائم على التشاركية.

(2) أنه نموذج يسمح ويتيح للطلاب الإرادة والدافع الذاتي في بناء واستخدام المعرفة لديهم.

(3) يعتبر التعاون أمراً حيوياً في كل المستويات المختلفة.

(4) إن غرض بحوث الفعل التشاركية هو تعديل أو تطوير الموضوع أو المحتوى الخاضع للاستقصاء أو البحث.

والباحثين العاملين في ميادين بحوث الفعل التشـــــاركية اعتبروا أن المعرفة الأمبيريقية تبدو مفيدة جداً. وقد مرت بحوث الفعل التشاركية بتغيرات في أهدافها من خلال ثلاثة محطات :

الأولى : اهتمت بتنمية التفكير الناقد.

الثانية : لتجميل ورفاهية الأفراد في أي مكان.

الثالثة : تتعلق بتعديل العلاقات ونظم ا لمجتمع المحلي.

كما ارتبطت بحوث الفعل التشـاركية بمشـروعات مجتمعية محلية، ومواقع تعليمية وتسـتخدم الآن في الاســتفادة من تطوير وتحســين تعلم الطلاب، والتدريس الناجح للمعلمين، وعن البيئة والتربية الصحية. وذلك لأن هذه الموضوعات السابقة تؤثر بشكل مباشر في حياة الشباب والراشدين.

ومن فوائد بحوث الفعل التشـــاركية أنها تجعل من الطلاب باحثين وأيضـــاً تجعلهم يتحملون المسؤولية أو جزء من المسؤولية في تعلمهم. وتزيد من ثقتهم في أنفسهم و يمكنهم كذلك من توصيل ونقل مشـاعرهم وأفكارهم دون تحفظ. وهذا من شـأنه تحسين الأداء المدرسـي وتعزيز التعلم واسـتئناف المنهج وتوظيف آلياته.

وتعتبر بحوث الفعل التشـاركية ضـرورة في مجال البحث التربوي خاصـة في ظل بقاء واسـتمرار ظاهرة الدروس الخصوصية، وانتشار المدارس الخا صة ومدارس اللغات بأنواعها المختلفة. هذه التعددية التعليمية - إن صـــح التعبير - من شـــأنها أن تؤثر على د يمقراطية التعليم وتكافؤ الفرص والحقوق المتساوية للأفراد في التعليم، وقد تؤدي إلى طبقية في التعليم.

ففي ظل الرأسمالية يعيش كثير من الناس في أوضـاع بائسـة وهنا تزيد أهمية أنشـطة بحوث الفعل بالمشـاركة وخلق فرص تعلم ثرية. وذلك من خلال تقديم نماذج تناسـب مجتمعات صـغيرة لتحقيق التنمية المحلية وأخرى بين مجموعة من المدارس، والتركيز على المشـــكلات التنظيمية وثالثة في جامعات مركزية وإقليمية في مصر لإعادة صياغة العلاقة بين البحث ومدلولاته.

نمـوذج مقـــترح :

لقد تبين لنا من خلال السطور السابقة كيف أن التعليم المصري يواجه مشكلات عديدة وتناقضات كثيرة وتعددية في الشكل والمحتوى سواءاً في النظام الإداري المدرسي أو في طبيعة المناهج أو في أنواع وطرق التقييم. بحيث يمكن القول بدون مواربة إن تفوق العامل المادي لدى بعض الأسر أتاح لهم فرص تعليم يختلف تماماً في كل العناصر التي تم الإشارة إليها وفي غيرها بدءاً من الحضانة وحتى نهاية المرحلة الثانوية بل وامتداداً للتعليم الجامعي الخاص. في مقابل أسر كثيرة ليس لديهم وفره في المال ويحصل أبناؤهم على تعليم حكومي انحدر في السنوات الأربعين الماضية عاماً بعد آخر حتى وصل إلى كونه طارداً للتلاميذ ولم يعد التعلم بهجه ولكن هماً وعبئاً على أكثر من 20 مليون أسرة في المجتمع المصري.

ويأتي نموذج بحوث الفعل للمساهمة في حل مشكلات تعليمية وغرس قيم مجتمعية وخلق مجتمعات بحث مهنية وتتبع قضايا بحثية مرتبطة بمؤسسات التعليم العام والجامعي.

ويتطلب هذا خلق فرق عمل تسمى فرق الدراسة والفعل تصبح طرفاً إيجابياً في عملية التغيير.

ويتطلب هذا اكتشاف القضايا التعليمية الكبرى وتتبعها وتنظيم الأدبيات ذات العلاقة بهذه القضايا التي يعتبر الفعل فيها عنصراً أساسياً. ومن الجدير بالذكر أن خلق حوار بين الباحثين وأعضاء الجماعات المحلية بمؤسسات التعليم العام والجامعي يمكن أن يكون له تأثيره التعليمي في كل من البحث والفعل والإجراء.

وكذلك يمكن القول أن بحوث الفعل معقدة وديناميه تأخذ صوراً وأشكالاً متنوعة وتتضمن الإنتاج التعاوني للمعلومات الجديدة وتحليلها معاً مع الأفعال وصولاً إلى نتائج ملموسة ومرغوبة للناس ذوي العلاقة.

بحوث الفعل عملية معقدة لإنتاج معرفة فعل Action Knowledge وتحقيق الفهم العميق، فهي مميزة عن البحوث التقليدية التي قد نرتاب في نتائجها وقدرتها على تغيير الواقع أو نصبح في شك مريب من نتائجها. إن بحوث الفعل ليست بحوث كيفية أو كمية على الرغم أنها قد تستخدم الاثنين من طرق جمع البيانات. فهي تمثل مناهج بحثية متعددة ومركبة يتم اختبار صدقها في الواقع أو في أثناء الفعل.

بحوث الفعل والممارسة القائمة على التأمل والتفكير :

يعتبر كتاب بول مكلنتش Paul McIntosh (2010) من المراجع المهمة التي تناولت موضوع الممارسة المستندة على التأمل والتفكير في بحوث الفعل.

تعرض بول مكلنتش عام 2007 إلى حادثة سير ترتب عليها إصابة خطيرة بجروح قطعية في الرأس وكسر في القدم وقطع في أعصاب اليد والكتف الأيمن. وقضى فترة تزيد عن الستين يوماً في برجورد وارد في منطقة كولشتر بالمستشفى العام ببريطانيا

West Bergholt Ward at colchester General Hospital in the UK.□

وقد أتاحت له هذه الظروف أن يصبح على صلة بالمسئولين عن الخدمة الصحية من الأطباء والتمريض والمعاونين يستمع إلى خبراتهم ويحاول أن يجد مساحة لنفسه للقيام بدورها في النظام الوظيفي الذي يمارسونه. وهم كانوا يؤدون خدمة صحية واجتماعية وتعليمية من خلال تطبيق نماذج وأساليب علمية، والتأمل والتفكير، وتطوير معنى ومغزى من خلال ممارساتهم لأنفسهم وللآخرين مثلي من المرضى. لقد لاحظت الفعل والممارسة القائمة على التأمل والتفكير في مجالات العلوم الصحية والعلوم الاجتماعية وعلوم التربية.

إنه من المفترض أن يحقق التأمل والتفكير عمق في فهم المعرفة Knowledge وكذلك معنى للذات والآخرين الذين تتم الممارسة من خلالهم، ويعتمد هذا على الوعي الذاتي ووعي الآخرين، وكذلك يعتمد على ملاحظات ذواتنا الداخلية our inner والذوات الخارجية outer selves، وملاحظاتنا لأنفسنا بواسطة الآخرين فهي عملية تبادلية دائرية، Cyclical.

بعض الكتاب أمثال جون إليوت John Elliott ارتأى أن بحث الفعل action research يعتبر بمثابة طريقة يصعب تطويرها دون توفر المدخل إليها أي النقد الانعكاسي أو النقد المرتد أو العائد Critically Reflexive، وإن صدق المعرفة يمكن قياسه من خلال كونها تقود أو تهدي إلى طرق جديدة في التفكير يمكن رؤيتها والقيام بها.

إن بحوث الفعل من أوائل من كتب عنها كان عالم النفس الاجتماعي كيرت ليفين في الأربعينيات من ق 20 ونظرية النظم العامة General Systems Theory والقائمة على فكرة أن العالم The world منظم حول الذرات atoms، الجزئيات molecules، والنظم التفاعلية التي تتشكل بطرق مختلفة لخلق نظام واسع من الخبرات في هذا العالم.

ويعتبر بحث الفعل من أكثر الطرق في البحث العلمي المعتمدة على شكل من البحث الكيفي Qualitative، ويصبح من غير المقبول أن بحث الفعل غير علمي non-scientific.

وقد انتقلت نظرية النظم العامة (GST) إلى بحوث الفعل من النظريات في الفيزياء والبيولوجي لبحوث الفعل التشاركية.

وبناءاً على ما سبق رأى بعض الكتاب أن بحث الفعل يعتبر مدخل للتأمل والتفكير النقدي Critically reflexive approach خاصة لتلك البحوث التي تتطلب موثوقية واعتمادية في المعرفة Validity to knowledge.

ولكن يظل من الضروري وضع وتطوير طرق التفكير هذه في سياق أو محتوى محدد. ويظل بحث الفعل مدخل امبيريقي لبيانات تم تجميعها والحصول عليها مع ممارسة التأمل والتفكير فيها بصورة متشابكة intertwined.

إن تجميع البيانات وتحليلها من شأنه أن يوفر أساس لأخذ الفعل. فبحث الفعل يتعدى مرحلة اتخاذ القرار المبني على التفكير والمميزة لخصائص العمل المهني مثل مهنة التدريس على سبيل المثال. وهو يستخدم عينات بحثية ليست كبيرة بحيث تصبح كافية للتعميم والادعاء بدرجة عالية من الاعتمادية والموثوقية ولكنه يظل مجالاً للبحث والاستقصاء.

وتظل بعض التساؤلات مفتوحة تنتظر الإجابة حول إمكانيات بحوث الفعل:

- كيف يمكن أن يكون بحث الفعل اقتصادياً في كلفته؟
- كيف يمكن أن تصبح إجراءات وخطوات بحث الفعل محدده؟
- كيف يمكن أن تكون إجراءات وخطوات بحث الفعل يمكن الوصول إليها أو متاحه؟
- كيف يمكن أن تكون إجراءات وخطوات بحث الفعل صارمه؟

ولكن ما يمكن قوله في هذا المضمار أنه يمكن النظر إلى بحوث الفعل من وجهات نظر مختلفة من حيث استخدامه.

- فهناك بحوث الفعل التربوية educational action research.
- وهناك بحوث الفعل التشاركية participatory action research.
- وهناك علم الفعل Action science.

وإن بحث الفعل ينبغي أن يكون شامل بخبرات الحياة الحقيقية وناس حقيقيون حيث يعيشون مع بعضهم البعض. وأن بحث الفعل هو من أجل النفع العام للمجتمع المحلي ولذلك فهو يعكس أفكاراً عن العدالة الاجتماعية، والتعاطف مع الآخرين، واحترام التنوع، وأفكار عن الصدق والحقيقة وغالباً ما يتواجد بحث الفعل في محتوى اجتماعي وتعليمي تحكمه قيم ومبادئ واضحة.

بحوث الفعل وتكامل المعرفة :

وبحوث الفعل متعددة التخصصات متعددة المناهج والطرق وتضع في الاعتبار تكامل المعرفة وكذلك المعرفة المبنية على التعاون والتضامن بين الأفراد المعنيين Collaborative knowledge.

وتعتبر بحوث الفعل أقرب الاتجاهات العلمية الاجتماعية والتربوية إلى تفعيل المناهج العلمية.

وتتضمن بحوث الفعل صياغة المشكلة وتحليل البيانات وتصميم الفعل أو الأداء أو الإجراء وتقييمه وإعادة صياغة الفروض والتفسيرات واتخاذ الإجراءات والأفعال في حلقة متصلة.

وتعتبر معايير المنهج العلمي في إطار بحوث الفعل أكثر فعالية من الأعمال التي يتم تنفيذها في العلوم التربوية والاجتماعية التقليدية.

إن الباحثين في بحوث الفعل لا يعملون بمفردهم ولكن يرتبطون بالمستفيدين المحليين أمثال التلاميذ أو الطلاب أو المعلمين أو أصحاب القرار التعليمي وصناع السياسة التعليمية. وباحثو الفعل لهم قيمة وهم متميزين بخبرتهم والتدريبات المهنية والعلمية التي حصلوا عليها سواء أكانوا باحثين خارجيين أو مشاركين في عمليات بحوث الفعل.

وتعتبر بحوث الفعل محاولة للارتباط بالواقع ولكن هذا الارتباط يحتاج إلى تغييرات في ا تجاهات البحث الاجتماعي. وما ينبغي إدراكه ووعيه، أن العلوم الطبيعية تختلف بحق اختلافاً جذرياً عن التربية والعلوم الاجتماعية بصفة عامة وذلك لأن العلماء والباحثين الاجتماعيون غير مرتبطين أو منخرطين واقعياً مع الظاهرات التي يدرسونها وبما في ذلك الظاهرات التربوية ويجعل من الصعب فهم الأفعال الإنسانية.

ولا يفصل العلماء في مجال العلوم الطبيعية والبيولوجية أنفسهم عن الظاهرة موضع البحث لكي يكونوا موضوعين. بينما يتخوف العلماء في العلوم التربوية والاجتماعية بصفة عامة من تحيزاتهم الشخصية والانفصال عن الظاهرة موضع البحث.

ويتفق كاتب الورقة الحالية مع عالم النفس الاجتماعي كورت ليفين Kurt Lewin الأستاذ بجامعة كورنيل الأمريكية من أن البحث الاجتماعي مرتبط علمياً واجتماعياً وأن أفضل وسيلة لفهم شيء محاولة تغييره. وأن بحوث الفعل أكثر قدره على الوصول إلى نتائج صادقة مقارنة بتلك التي تستخدم البحوث التقليدية.

أن أول قضية في أي بحث علمي ترتبط بتحديد مشكلة الدراسة وهذه ليست عملية بسيطة.

إن هناك العديد من المشكلات التربوية والاجتماعية وأن هناك العديد من المقترحات في الأدبيات والكتابات العلمية وبعض منها يدخل ضمن اهتمامات الباحثين وتساؤلاتهم والبعض الآخر لا يدخل.

إن بعض المشكلات له علاقة بالخبرة السابقة، والبعض الآخر له مرجعيته الشخصية والتاريخية. ومن خلال الملاحظة ومراجعة الأدبيات قد يتخذ قرار بأن مشكلة ما جديرة بالدراسة.

وعندما يتم تحديد المشكلة البحثية نقرر أن هناك أهمية كافية لدراستها ثم تصور كيفية دراستها ثم البيانات التي يجب أن تتوفر لدراسة المشكلة المختارة. وربما يصعب على الباحث تحديد ما هي البيانات التي ربما تكون مرتبطة بالمشكلة موضوع الدراسة، والطريقة التي يمكن بها جمع هذه البيانات.

يضاف إلى ما سبق كيفية توثيق المعلومات التي تم جمعها وتأكيد التماسك الفكري والاجتماعي لجميع عناصر العملية العلمية.

وهناك مرحلة صياغة الفروض أو التساؤلات وارتباطه بالإحساس بالمشكلة البحثية وقراءة الأدبيات والمناقشات عبر البريد الإلكتروني، والعلاقات التفاعلية بين الأشخاص وغيرها من التفاعلات.

وباحثو الفعل المهنيون خبراء في استخدام المنهج العلمي مع الإصرار على اكتشاف التفسيرات غير المتوقعة والتي غالباً ما تختفي عن الرؤية بواسطة الافتراضات وهذا ما يميز بحوث الفعل عن البحوث التقليدية. أو كما تقول الفلسفة الوضعية أن المعلومات مستقلة عن الباحث بينما يرى أصحاب البراجماتية الحديثة عكس ذلك. حيث ترى الأخيرة أهمية الإنتاج التعاوني للبحث عن طريق امتزاج الخبرات وردود الفعل المتبادلة، والاستخدام المتعدد للطرق والأساليب التي تطورت في العلوم التربوية والاجتماعية بصفة عامة والإنسانية ويمكن استخدامها في بحوث الفعل.

إن الأمر يتطلب نشر ثقافة بحوث الفعل داخل المجتمع المصري والعربي والبيئات التربوية فيه سواءا في التعليم العام من خلال برامج تدريب المعلمين ودورات التنمية المهنية، أو في الجامعات وتضمين مقرر بحوث الفعل ضمن المقررات. ويرى كاتب الورقة الحالية أن هذا هو الوقت المناسب وكليات التربية تقوم بتطوير وتعديل اللوائح للمقررات الدراسية وسعيها تطبيق نظام الساعات المعتمدة وتبني المبادئ والفكر الأيديولوجي من وراء نظام الساعات المعتمدة.

المراجع

(1) Elliott, J. (1991). Action Research for educational change. Open University Press, Philadelphia.
(2) Mclntosh P. (2010). Action Research and Reflective Practice. Routledge, London and New York.
(3) Sokhanvar, Z. and Salehi K. (2018). Participatory Action Research to promote educational Quality: A Literature review. Research & Reviews: Journal of Educational studies. Vol.4, issue 2, April-June.